إمتزاج الأغراضِ الشعريةِ في القصيدةِ الاندلسية – قصيدةُ المدحِ عند ابن هانئ الاندلسي انموذجاً

Mixing poetic purposes in the Andalusian poem - the praise poem of Ibn Hani Al Andalusi as a model

أ.م.د ضفاف عدنان إسماعيل

جامعة بابل/ كلية الآداب/ قسم اللغة العربية

dr.dhifaf2018@gmail.com

07801085197

الملخص

على الرغم من الجدلِ الدائرِ بين النقادِ ومؤرخي الادبِ حولَ الادبِ والشعرِ الاندلسي ونشأته، بين من يرى انطباعه بسيماءِ الاحتذاءِ والتقليدِ لشعرِ المشارقةِ، ويرده الى ضَعفِ الشِّخصيةِ والْعقلية الذِّهنية الأندلسية وقُصورِها لبلوغِ ذات المكانةِ التي وصلت اليها نظيرتها المشرقية، وبين من يرى أنْ التقليدَ والمحاكاةَ لم تكنْ لعجزِ الشعراءِ وعدم قُدرتِهم على الابتكارِ، بل هم قد ابتكروا وجددوا في فنون الادب الواصلة اليهم ولعل فن الموشحات من أبرز العلاماتِ التي وسمتْ تلك الشخصية الناشئة – الاّ أن تقليدهم جاء لشعورهم بالأنتماءِ الى الاصلِ والرغبةِ في الاستمرارِ بذلك الإرتباط، لذا عمِلوا جاهدين على الإبقاءِ والتمسكِ بالتقاليدِ الشعريةِ العربيةِ المتوارثة، وجعلوا من اهلِ المشرقِ مثالهم الاعلى، دون أن يعني ذلك جمود ذلك الادب وجفافه وعدم قدرته على الاتيان بالجديد، او ان يعد عيباً او نقصاً فيه على الرغم من خلوه او عدم التزامه ببعض ما عابه عليهم اهل المشرق، كعدم تطرقهم الى النواحي الفلسفية والمنطقية مما اضعف الجوانب الفكرية في شعرهم، وانما مرد ذلك الى ان الثقافة الاندلسية قد نأت وابتعدت عن تلك العلوم لدرجة تحرم تدريسها كباقي العلوم الاخرى التي ذاع صيتها في الاندلس، وتبقى للمؤثرات المشرقية دورها في بناء الادب الاندلسي وتكوينه، من غير ان يكون في ذلك الالتزام

ما يعيبهم او يعيب غيرهم من شعراء العربية لانه التزام نابع من رغبة لاشعورية بالارتباط الدائم بكل ما هو عربي مهما تطاول الزمن وتباعدت الديار.

الكلمات المفتاحية: إمتزاج ، ابن هانيء ، الاندلس ، أغراض شعرية

Abstract

Despite the controversy between critics and literary historians about Andalusian literature and poetry and its emergence, between those who see their impression of emulation and imitation of Oriental poetry, and refer it to the weakness of the Andalusian personality and mental mentality and its shortcomings to reach the same position reached by its eastern counterpart, and between those who see that imitation and imitation were not Because of the poets' inability and inability to innovate, but rather they have innovated and renewed in the arts of literature that reach them. Perhaps the art of muwashahat is one of the most prominent signs that characterized that emerging personality - but their imitation came due to their feeling of belonging to the original and the desire to continue with that connection, so they worked hard to maintain and adhere to traditions The inherited Arabic poetics, and they made the people of the East their ideal, without that implying the stagnation and dryness of that literature and its inability to bring new things, or to be considered a defect or deficiency in it despite its absence or lack of commitment to some of what the people of the East vexed them, such as their failure to touch the aspects. Philosophical and logical, which weakened the intellectual aspects of their poetry, but this is due to the fact that the Andalusian culture has distanced itself from those sciences to the extent that it is forbidden to teach them like other sciences that have been spread Its reputation is in Andalusia, and the oriental influences remain to play their role in building and forming Andalusian literature, without that commitment to what faults them or other Arab poets because it is a commitment stemming from an unconscious desire to permanently associate with everything that is Arabic, no matter how long the time and the distance of the lands.

Keywords: blending, Ibn Hani, Andalusia, poetic purposes

المقدمة

على الرغم مما اورده الباحثون والمهتمون بالادب، وعلى وجه الخصوص الادب العربي ونقده، من ان الشعر الاندلسي ما هو الا ادب تقليدي محض، لم توح به عاطفة، ولم ينبض به احساس، وانما اهله عالة على المشارقة، فيما يقولون وما يفعلون، فما كان ادبهم وشعرهم الا صدى لآثار المشرق وآدابه، وهذا طبعاً كما اشرنا اليه سابقاً هو رأي اصحاب المدرسة القائلة بالتقليد والمحاكاة في الادب والشعر الاندلسي دون أي تغيير، اما اصحاب المدرسة الاخرى التي ترى ان التقليد والمحاكاة انما هو امر طبيعي يحدث في كل امة تتعرض لما تعرضت له بلاد الاندلس من فتح اسلامي، فقد استطاعت الثقافة الاندلسية ان تطبع شخصيتها بعد مدة من الزمن بسمات ميزتها من غيرها.

ومن يقرأ لمن ارخ لتأريخ الاندلس وادبها لابد ان يتوقف عند قول صاحب الذخيرة في ادباء الاندلس فهم كما يراهم قد (لعبوا باطراف الكلام المثقف لعب الدجى بجفون المؤرق، وحدوا بفنون السحر المنمق حداء الاعشى ببنت المحلق، بنثر لو رآه البديع لنسي اسمه، ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح او تبعه جرول ما عوى ولا نبح) (ابن بسام: 1979)

ثم يقول بعد ذلك (انهم رؤوس شعر وكتابة تدفقوا فآنسوا البحور واشرقوا فبادروا الشموس والبدور) (ابن بسام: 1979) وعلى هذا فمن زعم ان الشعر الاندلسي قد " نشأ نشأة اتباعية تقليدية " مغيباً في غياهب التقليد متداخلاً مع شعر الاقاليم الاخرى، فهو لا يعي من امور الشعر الا الاوزان، ولا ينظر الا الى ظاهره، ناسياً ان للشعر بوجه خاص دون سائر الانواع الادبية الاخرى وباقي العلوم والمعارف (روحاً كروح الانسان ان تستوي مع الجنس كله في جملة الاخلاق، وتختلف في مفرداتها، وهي ملكة طبيعية لا تتأتى بالمحاكاة، وموهبة من المواهب التي لا يختص الله بها جيلاً دون جيل ولا اقليمياً دون اقليم) (خفاجة، محمد عبدالمنعم:1962).

وهناك من عاب على الشعر الاندلسي وقوفه على النمط التقليدي المشرقي من حيث الوزن والروي، حتى لو ان الغرض كان مختلفاً والمعاني متباينة، فهو قد اكتفى بالقاء نظرة عجلى

اقتصرت في الوقوع على نوع البحر وحرف الروي، ليسارع في اصدار حكمه المتمثل في ان كل عناصر القصيدة هي واقعة ضمن دائرة التقليد.(خفاجة،محمد عبدالمنعم: 1962)

والحق ان دائرة التقليد التي وقع فيها الشعر الاندلسي يمكن ان تلاحظ في العصور الاولى لفتح العرب لتلك البلاد، لانه كان (كقائليه اشبه بالطارئ على الاندلس فلم يكن فيه من طابعها، ولا من حياة اهلها بشيء، فكان بين المجاهدين من عرف بالشعر وارتاض بنظمه، لذلك لا نستغرب ان نجد شعرهم مشرقياً يجري على تقاليد الشعر المحافظ، ويعني بجزالة اللفظ وفخامة العبارة، ويتسم بالسطحية وعدم العمق في افكاره). (محمود، نافع: 1990) ومن خلال استقراء جهد الباحثين ومؤرخي الادب، يمكن رصد النقاط الاساس والمهمة التي وقفوا عندها والتي ميزت الشعر الاندلسي وطبعته بطابع ذلك الاقليم، فهم – شعراء الاندلس الاوائل – انتهجوا ذات القيم الشعرية المشرقية والاتجاه المحافظ ذاته، واصبح بالامكان تصنيفهم الى انهم ينتمون الى المدرسة الكلاسيكية العربية، التي تقوم على اسس ومبادئ نظم القريض على الطريقة الجاهلية، والمحافظة على تلك الاسس والقيم والتي تبدأ غالباً (ببكاء الاطلال او الافتتاح بالغزل ثم الانتقال الى الغرض الاساسي، ومن حيث اللغة يفضل اصحاب هذا الاتجاه الاسلوب القديم في الميل الى جزالة اللفظ وفخامة العبارة) (هيكل، احمد : 1967)، الا ان هذا الامر تغير قليلاً فبدأ يميل بمرور الوقت الى (سهولة في اللفظ وسلاسة في التراكيب وذلك اثر لسهولة طباعهم، ولين اخلاقهم، ورقة الطبيعة الاندلسية، ولارسالهم القول من غير تكلف ولا تصنع ولا تحميل للالفاظ ما لا تطيق من المعاني المزدوجة، فضلاً عن انهم لم يبالغوا في الاخذ بفنون البديع من تورية وجناس وطباق وغيرها). (خفاجة ، محمد عبدالمنعم : 1962) اما من حيث المعاني والاخيلة والاغراض، فالبداية اتسمت بالتقليد، الا ان هذا الامر بدأ هو الاخر يميل الى ان تصبح تلك المعاني والاخيلة والاغراض(واضحة جلية بعيدة عن تعمق الفلاسفة، وتدقيق الحكماء، لقلة المشتغلين منهم بالفلسفة واضطهاد علومها في الاندلس، وبغض العامة لها) (خفاجة ، محمد عبدالمنعم:1962). الا ان ذلك لا يعني انهم توقفوا عن الابداع والابتكار بل ان شعراءهم كانوا يغوصون في (البحث عن المبتكر الرائع او الغريب الطريف او البعيد الشارد، كانوا يغوصون غوصاً على المعاني حتى يستخرجونها كما كانوا يشققونها حتى يستوعبوا كل اجزائها، بل انهم كانوا يعتصرونها ويقطرونها

حتى يحصلوا على ادق عناصرها واهم محتوياتها) (هيكل ، احمد: 1967) لذلك كانت قوة الابتكار تأتي (في المعاني الجريئة) (الركابي، جودت:1955) ، وقد ادت البيئة الاندلسية دورها في قوة المعاني وغموضها، ولانها كانت بيئة ازدهت بكل انواع الجمال والفتنة سحرت الشعراء فمالوا اليها ينهلون منها اغراضهم ومعانيهم الشعرية. ولذلك فأن ما عابه البعض من تناول الشعراء لمعاني السابقين ومحاولة التقليل والانتقاص من مقدرة شعراء الاندلس الشعرية، فذلك امر تعودته العرب فكان (امرؤ القيس يبكي الديار كما بكى ابن خذام، وان زهيراً كان يرى ان الشعراء لا يقولون الا المعاد، وان عنترة كان يعترف بأن الشعراء لم يغادروا من متردم) (خفاجي ، محمد عبدالمنعم: 1962) وهذا الرأي سبق اليه الجاحظ حين قال (نظرنا في الشعر القديم والحديث فوجدنا المعاني تقلب ويؤخذ من بعضها من بعض، ولا يعلم في الارض شاعر متقدم في تشبيه مصيب او معنى غريب، الا وكل من جاء من الشعراء من بعده ان هو لم يقدر على لفظه فيسرقه او يدعيه فأنه لا يدع ان يستعين بالمعنى) (الجاحظ:1950).والعسكري في كتابه الصناعتين يقول ما اورده المقري في نفح الطيب (ليس لاحد من اصناف القائلين غنى عن تداول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالبهم) (العسكري: أبو هلال: 1952) ولم تبقَ الحال على ما هي عليه، فشعراء الاندلس، وان استقوا موضوعاتهم واغراضهم من شعر الشرقيين، الا ان بعضهم عمد الى (عرض المعنى القديم في ثوب جديد والتأنق في رسمه وتلوينه، حتى انك لتنسى اصله وتحسبه معنى جديداً واحساساً طريفاً، فهم يأخذونه بالتحوير او النقص او الزيادة او الشرح حتى تحس بشخصيتهم فيه واضحة جلية وتعترف لهم بالتحديد في هذا التصرف) (خفاجة : محمد عبدالمنعم: 1962) ومما ساعدهم على ذلك اخذهم بتجميلِ الصياغةِ الشعريةِ بفنونِ المحدثين المتمثلةِ (بالوانِ البديعِ وتوشيتها بصنوفٍ من المحسناتِ، وقد كان من ابرزِ تلك المحسنات المقابلة والطباق والجناس والتكرار) (هيكل ، احمد: 1967) ولم يفتْ بعضهم ان (يتلاعبَ بمعاني بعضها وكان حسن التعليل والتفنن والابداع فيه والاكثار منه سمة من سماتهم وباباً من ابواب تجديدهم في المعاني وافتتانهم في التشبيهات وامعانهم في الخيال) (خفاجة ، محمد عبدالمنعم: 1962).والشخصيةُ الاندلسيةُ تظهرُ بصورةٍ بارزةٍ في شعرهم عبر المعاني الجديدة التي استمدوها من بيئتهم، وتناغموها مع طبيعة البلاد، فعذب بيانهم، وهذب شعرهم، فعملوا على التأنق في

الالفاظ، فظهر لديهم الغزل الرقيق، ووصف الطبيعة الغنّاء في اشعارهم، لتمنح قارئها ووجدان المتلقي (التأثير الفني لتأمل جمال الطبيعة) (محمود ، نافع: 1990) لذلك عمدوا الى (الايحاء والتصوير والتشخيص) (محمود، نافع :1990) في رسم صوره الفنية. وكثير من شعر الاندلس هو في حقيقته (شعر ارتواء وشبع وقناعة شعر فراغ وراحة لدى شعراء انغمسوا في فن الوصف الدقيق لتجارب خارجية، كما ترى في فن الربيعيات والزهريات الذي انتشر في الأندلس انتشاراً واسعاً) (الجيوسي ، سلمى الخضراء :2004) ويرجحُ الدكتور احمد ضيف رجوعَ شعراءِ الاندلسِ الى اساليب وافكار الشعراءِ المشارقةِ المتميزةِ بالبداوةِ الى ان (العرب من اشد الامم عصبيةً وحنيناً الى وطنهم وعيشتهم الاولى، اذ رغم ما كان في نفوسهم من الاثر الذي اكتسبوه من تلك البلاد وما حصل لهم من الحياة التي لم يكن لهم بها عهد في بلادهم كانوا لا يزالون يميلون الى اخيلتهم الاولى ولم يكن مهماً لهم ان يهجروا عاداتهم لان العجب والخيلاء اللذين كان لهما السلطان على عقولهم، جعلاهم حتى في تلك البلاد البعيدة وحتى بعد قرون من انتجاعهم اياها يتغنون بذكر بلادهم ويتخذون الشعر القديم نموذجاً لهم في الصناعة والخيال والذي يقرأ الشعر الاندلسي يجده اخا للشعر في بغداد بل وفي بلاد العرب نفسها من حيث الصفات العامة والموضوعات التي كانت عند القدماء) (ضيف ، احمد :1938) ، والى هذا الراي يذهب الدكتور عبد العزيز عتيق، فهو يرى ان الشخصية الاندلسية صارت لها صفات وخصائص تميزها من الشخصية الادبية المشرقية، وان (ما يرى فيه احياناً من معان سبق اليها شعراء المشرق فسببه ما تسرَّب اليهم لا شعوريا من هذه المعاني نتيجة دراستهم ومطالعاتهم وحفظهم لادب المشارقة وهو امر بعيد عن السرقات الشعرية) (عتيق ، عبدالعزيز : 1976) وقد اعطى المستشرق الاسباني (غارسيا غومس) راية فيما حدث من تحول في ادب وشعر الاندلسيين وقرر انه لا يمكن بأية حال من الاحوال نكران ما في (معانيه والفاظه من قوة حسية صادرة عن نزوع عميق الى الترف مستقر في قلوب شعراء العرب، ونستشعر فيه ميلاً الى الراحة والرخاء ترتاح اليه النفس، ثم اننا نصادف فيه بين الحين والحين طفرات تتغلب فيها حدة الالم او حرارة العاطفة على اسر القوالب الجامدة الثابتة وتجاوز حدود الموضوعات المقررة التقليدية) (نومس ، غارسيا :1965) اما لغة الشعر الاندلسي، فالنتيجة التي نصل اليها، في البدايات الاولى، ان الشعر الاندلسي مادام اعتمد محاكاة للشعر

المشرقي، في الالفاظ والتراكيب والاغراض، فلابد انه اعتمد على ذات اللغة التي جاء بها المشارقة، بما تحمله من قوة الشعر الجاهلي، الا ان ذلك لم يستمر طويلاً لان (لغة الادب الرسمي قد امتازت بالابتكار غالباً، وبالجزالة دائماً، ولم يكن فيها ما يدل على ضعف أساس) (الجيوسي ، سلمى الخضراء:2004) وقد ادت بيئة الاندلس وطبيعتها دوراً مهماً في ان تتخذ اللغة الشعرية طابعاً يتصف بالبعد عن الغريب والخشونة اللفظية، فصارت لغتهم تتميز (بالسهولة والوضوح والعذوبة، بحكم تكوينهم الثقافي المؤسس على علوم العربية وآدابها) (عتيق ، عبدالعزيز :1976)

ختاماً يمكننا القول ان الشعر الاندلسي قد كان في بداياته الاولى يسير مسيرة محاكاة واتباع لشعر المشرق، ولكن هذا الامر لم يستمر وانما استطاع الاندلسيون من بناء شخصية ادبية خالصة ومستقلة من غير ان يستطيع احد ان ينفي الشخصية الام ولكن يمكن القول ان صفات بدأت تنحسر وتتقلص عن روح الشعر الاندلسي الذي امتاز (بتجسيم الخيال النحيف، واحاطته بالمعاني المبتكرة التي توحي بها الحضارة، والتصرف في ارق فنون القول، واختيار الالفاظ التي تكون مادة لتصوير الطبيعة وابداعها في جمل وعبارات تخرج بطبيعتها كأنها التوقيع الموسيقي، بل هي تحمل على التلحين بما فيها من الرقة والرنين وجزالة اللفظ في شعرهم انما هي روعة موقعة وحلاوة ارتباطه بسائر اجزاء الجملة وتلك فلسفة الجزالة) (الرافعي، مصطفى:1916) اخيراً ان الشعر الاندلسي الذي يبقى نهراً معطاءً، ما زال بحاجةٍ الى كثيرٍمن الدراسات الادبية والنقدية عنه، للكشف عن كل الجوانب والنواحي التي لاتزال غامضة الى يومنا هذا.

المدح : –

عُدّ الشاعر مرآة عاكسة للبيئة التي يعيش فيها على مر العصور والدهور، ومهما كان مقداره ومقدرته الفنية، فلابد ان يعثر في اشعاره على ما يوثق للمرحلة التي عاصرها وعاش فيها، سواء كان ذلك توثيقاً تاريخياً او فنياً، لذلك عدت كثيراً من دواوين الشعراء في بعض الاحيان احد المصادر التاريخية التي قد تعين الباحث التاريخي ليستقي منها ما يمكنه من استجلاء الحقائق والوقائع السابقة، ومثله من اراد ان يستقرئ تاريخ الادب، فالأغراض الشعرية التي يحتويها ديوان أي شاعر يمكن لها ان تعطي خيطاً معرفياً يساعد على اكتشاف طبيعة الحياة الادبية والاجتماعية

التي كانت سائدة في زمن ما، وماهية الاغراض والفنون التي اتخذت لها مساحة ومكاناً اكبر وحيزاً اوسع من باقي الفنون الادبية الاخرى.

ان غرض المدح واحد من اهم، بل واكثر الاغراض الشعرية قولاً منذ اقدم العصور التي جرى فيها الشعر على لسان العرب، يمكن القول ان هذا الغرض الشعري لم يظهر عندما قيل الشعر لأول مرة، لكون الشعر في تلك المرحلة قد سادت فيه وطغت عليه سمة العاطفة الذاتية ويبدو ذلك واضحاً على وجه الخصوص في الغزل.

والمديح قد مر بمراحل تطورية اوصلته الى الشكل الذي نراه الان، ففي المراحل الاولى كان المديح فخراً جله ذلك لان اساس الطبيعة البدوية تكمن في الاعتماد على النفس، التي تنمي في شخصية الانسان صفة الكبرياء التي عرف بها العرب واشتهروا، لذلك لا نلمح في شعر الطبقة الجاهلية من المهلهل او امرئ القيس ومن سار بركبهما مديحاً مبنياً على الملق وتصنع الاخلاق ومدح الشخص بما ليس فيه، لان العربي في تلك المرحلة لم يكن يمدح الا بما يراه حقيقياً في الممدوح من فضائل وخصال محمودة.

ان النقاد حين تعرضوا لغرض المدح بالنقد حددوا فيه شروط المدح الجيد فآختاروا الاسلوب الجزل والالفاظ المتخيرة، وان تكون قصيدة المدح متوسطة الطول اذا كانت في عظيم وذلك خشية سأمه ان كانت طويلة، وعد بعض الشعراء ان الاطالة في المدح انما هي ضرب من الهجاء كابن الرومي الذي يقول :

واذا امرؤ مدح امرءاً لنواله واطال فيه فقد اطال هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما اطال رشاءه (ابن الرومي: 1981)

في ضوء تلك الشروط المتوارثة التي حددها النقاد العرب، والتي ينبغي توافرها في المديح نتوجه الى الغرب حيث الاندلس وشعراؤها، فإننا نراهم قد نظموا المدائح واكثروا منها، حتى لنجد ان قسماً قد اقتصر اغلب شعره على المدح فقط، كابن دراج القسطلي وابن حمديس الصقلي، ويسبقهم

بلا ادنى شك ابن هانيء الاندلسي، موضوع البحث، وقبل البدء بدراسة مدائح متنبي المغرب (ابن هانيء) والتعمق فيها لابد من إلقاء نظرة سريعة وخاطفة على هذا الغرض الشعري في الفردوس المفقود هل حافظ على اسسه وسار عليها ام اصابه التطوير والتغيير نتيجة طبيعة تلك البلاد.

ان الملاحظ في شعر المدح الاندلسي، ان اغلبه موجه بالدرجة الاولى الى خلفاء الاندلس وملوكه وامرائه، هذا من جهة والملاحظة الثانية انه من حيث المضمون يمكن ان نرى فيه جانبين : –

الاول : التركيز على الصفات الطبيعية التي يخلعها الشاعر على الممدوح وهي صفات تقليدية كالمروءة والشجاعة والوفاء والكرم وكل ما يحب العربي سماعه من خصال حميدة.

اما الجانب الاخر : فهو التركيز على انتصارات الممدوح، التي هي نصر للاسلام والمسلمين ويتبع ذلك من وصف المعارك والجيوش.

اما من حيث الالفاظ فأن الشاعر يحاول ان يحشد لها الالفاظ الجزلة مع التوفيق بين اساليب الجزالة والفخامة، والرقة والسهولة، والتأنق في الصياغة الفنية للالفاظ، فيمنحها بذلك عناية كبيرة.واذا وصلنا الى البناء الفني لقصيدة المدح الاندلسية فالملاحظة التي تسترعي انتباه الباحث او القارئ الواعي، هي اختلاف طريقة البناء من شاعر لاخر، فهناك من يبني قصيدة المدح على موضوع المدح فقط؛ اذ يدخل فيه من غير مقدمات وابتداءات.وهناك من يستهل القصيدة المدحية بالغزل او وصف الطبيعة او الخمر او الشكوى او العتاب ثم ينتقل الى المدح، وهناك من يستهلها بموضوعين هما في الاغلب والاكثر الغزل والرثاء، حتى اذا بلغ غايته خرج الى المدح وهو الموضوع الرئيس للقصيدة، والشاعر ليس مبدعاً لهذه الطريقة بل هو سائر على سنن الاقدمين الذين بنيت القصيدة المدحية عندهم من مقدمة طللية اتبعوها بنسيب، فوصف للرحلة ومشاقها، خالصين بذلك الى المدح،واول من نبه على هذا البناء ولفت الانظار الى الاسس النفسية التي بنيت عليها تقاليد قصيدة المدح القديمة ابن قتيبة الذي قال (ان مُقَصّد القصيد انما

ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والاثار، فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر اهلها الظاعنين عنها انتجاعاً للكلأ وتتبعاً للماء ومساقط الغيث، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد والم الفراق، وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه ويستدعي به اصغاء الاسماع اليه، لان التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، والف النساء، فليس يكاد يكون احد يخلو من ان يكون متعلقاً به بسبب وضارباً فيه بسهم حلال او حرام) (ابن قتيبة : 1932) ، فابن قتيبة حدد في نصه السابق البناء الفني للقصيدة، ولم يأت هذا التحديد من فراغ وانما اعتمد فيه استقراء الاشعار التي وصلت اليه، فمعظم القصائد نظمت على هذا المنوال وما تزال تبنى، حتى صارت تلك الطريقة تمثل المنهج والمدرسة الشعرية الكلاسيكية العربية، والشاعر بعد ان يملك على السامع عقله، وامال اليه القلوب عمد الى فنون القول (فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر، وسرى الليل وحر الهجير، وانضاء الراحلة والبعير، فاذا علم انه قد اوجب على صاحبه المقصود حق الرجاء والتأميل وقرر عنده ما نال من المكاره في المسير، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة، وهزه للسماع، وفضله على الاشباه) (ابن قتيبة: 1932)

وشعراء الاندلس ساروا على المنحى نفسه الذي حدده الاقدمون وبينة ابن قتيبة، فقصيدة المدح عندهم تتعدد في موضوعاتها الا انها تخالف قصيدة المدح المشرقية في نوعيتها الى حد ما. وذلك امر طبعي لان لكل زمان موضوعاته، التي بها يستطيع الشاعر ان ينال اعجاب سامعيه ويصل الى مبتغاه، ويستميل ممدوحه للعطاء او يحوز الحظوة عنده.عموماً ان غرض المدح قد حافظ على الاسلوب القديم، وكان الشعراء يعنون بالاستهلال وحسن التخلص، وربما جعلوا صدور مدائحهم وصفاً للخمر او للطبيعة او للبلد الذي نشأ فيه الشاعر او للمرأة التي احبها، وقلما شذ بعضهم عن هذا السبيل، و انهم وصفوا الفلاة والناقة والجواد ووقفوا على الديار والاطلال، ولكنهم لم يطيلوا الوقوف ولم يستفيضوا بوصفهم، ولم يغرقوا باستعمال الغريب الا ما كان من امر ابن هانيء الذي سنحاول دراسة قصيدة المدح لديه، حيث عاب عليه النقاد كثرة المغالاة وتعمد الغريب محاولة منه لتقليد المتنبي،وكانت اغلب مدائحه، كحال باقي شعراء الاندلس محشوة بالتملق سائرين على طريقة المشارقة.

المدح في شعر ابن هانيء : –

غلب قول المدح على اكثر شعر ابن هانيء وعليه قامت شهرته، لارتباطه وملازمته لساسة عصره واعلام زمانه، ممن اتصل بهم من رجالات الاندلس، والواضح ان قسماً من مدائحه فقد (لتجاهل بعض الشيعة الذين يهمهم حفظ شعر ابن هانيء مدائحه في بني امية) (الدقاق ، عمر :1974) اذن المدائح التي هي بين ايدينا الان ليست كاملة، كي تمكننا من ايراد حكم منصف بحق الشاعر غير ما اورده الدكتور منير ناجي الذي يرى ان ابن هانيء (لم يعش الا متذلفاً متذللا، يطرق الابواب مستجدياً يبيع شعره، بل يبيع ذاتيته في سبيل ما يحصل عليه من الممدوح، او كأن العزة لم تعرف الى نفسه سبيلاً، فعاش حياته طارقاً باباً وسائلاً نوالاً) (ناجي ، منير :1962) ، ومع جل احترامنا وتقدير لما عرضه الدكتور من راي نقدي نقدره، لكن نختلف معه من حيث الفكرة، من ان كل الشعراء العرب قد وقفوا بابواب الملوك والامراء، متذللين يستجدونهم ببيع شعرهم، على الرغم مما يظهرونه من كبرياء وتكبر، حتى الشاعر الكبير ابو الطيب المتنبي الذي اتخذه ابن هانيء مثالاً يحتذي به، فما لنا ننسى الاصول وننتقم من المقلدين ؟ ! الم يطرق المتنبي الابواب ويشترط العطايا والهبات الممنوحه له ؟ الم يغادر ويرحل تاركاً اميراً وخليفة ليطرق باب اخر اجزل عطاءً، وأوفر مالاً واني لا اجد في ما فعله ابن هانيء شيئاً منافياً لعادات الشعراء فهو يسير في ركبهم ويحتوي نهجهم فما وقوف الشعراء على ابواب الامراءالا لغاية واحدة تتنوع اساليبها كما اعتقد وارى.ولكون ابن هانيء شاعراً تعود اصوله وجذوره الى المشرق فقد كانت تعجبه القوة، وتفتنه البطولة وراى في اعمال القادة، والولاة من فتوحات وانتصارات، ما يستوجب الاشادة بهم على ان شعره فيهم لم يكن مديحاً بمعنى الكلمة، بل يمكن اعتباره شعراً حماسياً ينطوي على وصف المعارك وتصوير البطولات، ومن خلال استقرائنا لنصوص ابن هانيء الشعرية في غرض المدح يمكننا ان نجعلها على قسمين : –

الاول : ما قاله ابن هانيء في الولاة والامراء ابتداءً من جعفر واخيه يحيى بن علي بن حمدون، التي يمكن ان يطلق عليها (المرحلة الشعرية الاولى).

الاخر : ما قاله في الخليفة الفاطمي المعز لدين الله وعرفت بالمعزيات على غرار هاشميات الكميت وروميات ابي فراس.

المرحلة الأولى : مدائح ابني علي بن حمدون

قبل الدخول والخوض في مدائح ابن هانيء في هاتين الشخصيتين لابد من استقراء تاريخ وصولهما الى الاندلس والقاء نظرة خاطفة وسريعة عليه، تمكننا من ارساء اسس لفهم اشعاره التي قالها بحقهما، فجدهما دخل الاندلس قادماً من الشام وسكن بكورة البيرة ثم انتقل حمدون (جدهما) الى مدينة بجاية وصحب ابا عبد الله الشيعي، ودخل في مذهبه، فلما تغلب المذهب الاسماعيلي وساد افريقية، ظهر علي بن حمدون ... ثم ازداد ظهوراً في ايام عبيد الله المهدي ، فبنى القصور والمتنزهات وإقام له فيها سلطاناً ومجداً فقصده العلماء والشعراء وكان بين اولئك ابن هانيء الذي سمع بجوده واريحيته فهرع اليه عام (348هـ) فأشاد بذكره وافاض في الثناء عليه والاعجاب به (المراعشي ، ابن عذاري: 1983) ووصف جهاده وبطولته وادابه السامية النبيلة في قصيدته التي يقول فيها : –

يميناً لانت مليك الملوك فمن شاء خص ومن شاء عم
خلقت شهاباً يضيء الخطوب ولست شهاباً يضيء الظلم
ولو ان دهرك شخص تراه لتسطو به فاتكاً ما سلم
الى جعفر يتناهى المديح وفيه تتر القوافي الحكم
فلست أبالي بأي بدات بفخري بكم او بمدحي لكم
تكنفتموني فلم اضطهد واعززتموني فلم اهتضم
ففي ناظري عن سواكم عمى وفي اذني عن سواكم صم
فشملي بشملكم جامع وشعبي بشعبكم ملتئم
اذم اليك اعتوار الخطوب وحرف الحوادث فيما اذم (تامر، عارف :1961)

والحقيقة فإن قصيدته هذه طويلة اثقلها بمعاني المدح لشخص الممدوح من شجاعة وكرم وخلال طيبة حميدة تخلد ذكراه على مر العصور والازمان وهو يستقي من مدرسة المتنبي

الشيء الكثير، حتى كأن من يقرأ قصيدته يترآى له انها لابي الطيب للتشابه الكبير بينهما من حيث بناء القصيدة واستهلالها، وتراكيبها والفاظها، وهو لا ينسى ايضاً ان يفخر بنفسه في آخر القصيدة كما كان يفعل المتنبي فيقول ابن هانيء :

واني وان ترني قابضاً جناحي الي كظيماً وجم
اقلك من هفوات المزار وأبدي الغناء واخفي العدم
فأني من العرب الاكرمين وفي اول الدهر ضاع الكرم (تامر، عارف:1961)

وكان لمعاني المديح التي اوردها ابن هانيء في قصائده وشاعريته في هذه المرحلة يقظة قوية مشبوبة، يحفزها في ذاته فورة الشباب وحوافز الامل والعزم على الظهور في اوساط ذلك المجتمع الجديد ، بين باقي شعراء عصره المغاربة، فقد ساعدت ملكته الشعرية والادبية على اخمال ذكرهم بل اصبحوا حافزاً له على تجويد شعره، وصقل فنه والابداع في سحر القريض فكانت قصائده تخرج اخراجاً فنياً مستوية الأطراف جميلة السبك جزلة اللفظ، عذبة يشيع منها أثر التأنق والتهذيب، وهو لم يكن مدفوعاً ببواعث مادية بحتة، بل ان قصائده كانت تصدر عن عقيدة قوية أخذت مدى واسع الانتشار في بلاد الأندلس وأفريقيا وعن ما تبع ذلك من سلطان سياسي، والاخلاص الذاتي للعقيدة التي آمن بها ابن هانيء، جعلته يتفانى في الولاء لها، فكان مدحه لاسرة آل علي في حقيقته مدح للعقيدة اعتنقها وكافح من اجلها طوال مرحلة حياته القصيرة. والواقع ان من يقرأ قصائد ابن هانيء في هذه المرحلة يشعر بأنها نابعة من مشاعر صادقة بعيدة عن سمات التكلف، موسومة بصبغة الشاعرية المطبوعة لتظهر شخصيته الفنية بوضوع وجلاء، على اننا نستغرب حكم الدكتور منير ناجي حين يقول ان (الاوصاف كلها اقرب الى الغزل منها الى الوصف البطولي الذي يجب ان يوصف به الرجل، وان الشاعر لم يحسن اختيار الالفاظ الجديرة بالمدح الموجه الى الرجال حيث الكلام يجب ان يدل على القوة والشدة الاّ ان يكون جديراً بالنساء) (ناجي ، منير :1962).ويستمر ابن هانيء في مدحه لجعفر بن علي والي الزاب لما

يستجلي فيه مثالاً لصورة العربي، مشيداً بمآثرة وعروبته التي تربطه والشاعر برابط القرابة والعروبة والنسب فيقول مثلاً على ذلك : –

انا لتجمعنا وهذا الحي من بكر اذمة سالف لم تخفر
احلافنا فكأننا من نسبه ولداتنا فككاننا من عنصر(تامر، عارف:1961)

وهو في مدحه يستجمع كل معاني الكرم والشجاعة والمروءة والعروبة وغيرها من الصفات التي تواترت بين الناس على مر العصور، والتي عدوها معياراً يحكمون من خلاله على أحقية الشخص بالمدح من عدمه، وابن هانيء لم يفته شيء من ذلك فهو فضلاً عن ما ذكرنا من مدحه لابن علي بالشجاعة، وانه عربي الارومة تربطه والشاعر رابطة العروبة فهو يمتاز به اغلب العرب من كرم، ولكنه وكعادات الشعراء يغالي في اظهار كرم ممدوحه فيجعله يتجاوز حاتم وهرم بن سنان فيقول في ذلك : –

فمن حاتم ثكلوا حاتما ومن هرم حيث عدوا هرم
اذا هو اعطى البعير الفريد برمته ظن ان قد كرم
وانت رايتك تعطي الالوف فتنهب نهباً ولا تقتسم
وكان اذا ما ترى بكرة تفرد بالجود فيما زعم
وانت تجود بمثل البكار من التبر في مثلها من ادم (تامر، عارف:1961)

وهو في المحصلة النهائية يجعله خير البشر من عرب وعجم : –

ياخير ملتحف بالمجد والكرم وأفضل الناس من عرب ومن عجم(تامر،عارف:1961)

كأنما في كفه للورى مفاتح الآجال والرزق
الحوض حوض الله في كفه يطفح من ملء ومن فهق(تامر،عارف:1961)

وهذه المعتقدات التي غالى في اظهارها ابن هانيء في شعره نابعة كما قال المؤرخون لحياته وشعره من تمسكه بأصول العقيدة الاسماعيلية وتشربه لمبادئها، اما دعوته الى اللهو والخمر والنساء فكانت لمناسبة القصيدة التي قالها حين اهدى جعفر جارية ليحيى، وعلى الرغم من ذلك فهو قد اشبع القصيدة بمعاني البطولة والشجاعة التي يطلبها قائد وامير.

وعلى كل حال فقد علا صوت ابن هانيء وطبقت شهرته واشعاره الآفاق، وصارت قصائده يرددها الرواة وينشدها النشاد المنشدون في مجالس الخلفاء حتى وصلت الى اسماع المعز لدين الله في القيروان مما دعاه الى ان يرسل الى واليه جعفر في الزاب يطلب منه ابن هانيء، وامتثل الامير لطلب الخليفة، فاضحى الشاعر من ذلك الحين شاعر المعز.

المعز لدين الله الفاطمي وابن هانيء : –

وصل ابن هاني الى القيروان عاصمة الخلافة الفاطمية في حدود عام (344هـ او 345هـ)، وسعى هناك للقاء الخليفة، فأنشد شعره ومدائحه شخص الخليفة والخلافة مبيناً جلالتها وعظمتها، مصوراً ما وصلت اليه من عز شامخ ومجد مكين، وبه اقترن اسم ابن هانيء لغاية في نفس الخليفة حين اتخذ من ابن هانيء شاعراً خاصاً يفاخر به شعراء المشرق وملوكها.

يقع معظم عدد القصائد التي قالها ابن هانيء في مدح المعز لدين الله الفاطمي احدى وعشرين قصيدة فقط لا غير، اتخذ لها اسماً تعارف اطلاقه النقاد والادباء والعامة هو (المعزيات) واشتهر الكميت بالهاشميات، وابو فراس الذي عرف بالروميات، (وربما كانت هذه القصائد من الأسباب المباشرة لقصر حياة ابن هانيء، وما لحقه من النقمة واللعنة بعد مماته) (تامر، عارف: 1961) لما ورد فيها من مغالاة.والحقيقة ان الحياة التي عاشها ابن هانيء في كنف المعز كانت تختلف عما كانت الحال عليه في كنف اسرة آل علي، فبعد ان كان مستغرقاً في ملذاته وشهواته،

اصبح شاعراً يصف الحياة بكل معانيها ومظاهرها، وشاعر الخليفة، فكان يجد في عظمة المعزوعصره مجالاً فسيحاً ينظم الشعر فيه، من ناحية اخرى (كان المعز على جانب عظيم من التفهم وبعد النظر والحرص على بعث النهضة الادبية والعلمية في ارجاء دولته الشاسعة، وكان من المثقفين ثقافة عالية ويجيد كافة اللغات السائدة في عصره كما كان شاعراً رقيقاً) (تامر، عارف:1961)، هذا غير ما كان يتمتع به المعز من السجايا الشخصية وصفات الزعامة مع ما حظي به من صفات كان اقواها صفة الامامة فكانت مدائح ابن هانيء فيه تنطوي على جانبين سياسي وديني معاً لأنه كان مغالياً في اتباعه النهج الاسماعيلي ، فاستخدم في تلك المرحلة الايات القرآنية واسبغ من صفات الخالق على الخلق (ابني علي – جعفر ويحيى) فاوصلهما الى مرتبة اعلى من مرتبة البشر.والتفسير الوحيد لذلك ينبع من تأثير العقيدة الاسماعيلية عليه، التي توجب عليه احترام الامام وجعله بمنزلة الانبياء وربما اكثر من ذلك اليس هو من يقول في مدح جعفر ويحيى : –

فلا تسألاني عن زماني الذي خلا فوالعصر اني قبل يحيى لفي خسر
فيا ابن علي ما مدحتك جاهلاً فأنك لم تعدل بشفع ولا وتر (تامر،عارف:1961)

او قوله :

كأنما في كفه للورى مفاتح الآجال والرزق
الحوض حوض الله في كفه يطفح من ملء ومن فهق(تامر،عارف:1961)

فهو قد جعل في يده مفاتيح الاجال والارزاق وحوض الكوثر يهب من يشاء كيفما يشاء، فماذا بعد ذلك ! ما الجديد الذي نراه مع المعز ، لاشيء سوى المبالغة والغلو في اضفاء الصفات الالهية اضافة الى ادخاله آيات قرآنية في شعره، يتوكأ عليها ولكن يمكن القول ان بداية اشعاره في المعز كانت قليلة الاقتباس من القرآن الكريم والصفات الالهية واضفائها على الممدوح، ولكن بعد ان

طالت صحبته للمعز واحتكاكه مع الاسماعيلية الموجودين في محيطه تمكن من الافصاح بصورة اكبر عن معتقداته والمبالغة والغلو فيها، على هذا تقسم المرحلة الشعرية مع المعز، اما انه لم يتمسك بالاعراف والافكار الاسماعيلية ففي ذلك تجنٍ على الحق كما اعتقد، لان والده هو اصلاً من دعاة الاسماعيلية فمن غير المعقول ان يحتاج ابن هانيء الى من يزرع تلك المبادئ في نفسه، ولكن يمكن القول انه بحاجة الى محيط يمكنه من الافصاح عن مكنوناته ويحميه من ان يتعرض لاي خطر، ويمكننا القول ان مرحلة اتصاله الاولى بمعز الدولة، كانت مرحلة استقرار نسبي قليلة الحروب، ونتيجتها محسومة لصالح المعز وجيشه، كما يمكن اعتبار عدم مبالغاته في قصائده الاولى والمغالاة فيها خوفاً من ان يمل السامع قصائده وشعره، ولكون الممدوح خليفة فهو بالتأكيد يود ويرغب في ان يمدح كما يمدح أقرانه من خلفاء المشرق وعلى ذات الطريقة من ابتداء القصيدة بمطالع غزلية طللية حتى يصل الشاعر الى غرضه الاصلي والحقيقي من القصيدة، ومثال ذلك قصيدته في مدح المعز لدين الله التي يؤرخ فيها لمعارك خاضها جيش المعز مع الروم وانكسار بني امية امام جيش المعز، واذا كانت هذه المعركة قد وقعت في عام اربعة واربعين وثلاثمائة للهجرة (344هـ – 955هـ) حين غزا المعز مدينة صقلية ساحل المرية (ابن خلدون:1968/ ناجي ، منير:1962) ، كما يذكر ذلك ابن خلدون في تاريخه، فمعنى ذلك ان قصيدة ابن هانيء هي من بدايات قصائده في مدح المعز، ابتدأها على عادة العرب الجاهليين : –

اقول دمى وهي الحسان الرعابيب ومن دون استار القباب محاريب
نوى ابعدت طائية ومزارها الا كل طائي الى القلب محبوب
سلوا طيء الاجيال اين خيامها وما أجأ الا حصان ويعبوب
وما راعني الا ابن ورقاء هاتف بعينيه جمر من ضلوعي مشبوب
الا ايها الباكي على غير ايكة كلانا فريد بالسماوة مغلوب(تامر،عارف:1961)

فإذا اكمل ما قد بدأ وايقن انه استحوذ على مشاعر وسمع الخليفة عجل بالدخول الى ما هو اصل واساس قصيدته (المدح) فيقول مرة واحدة : –

ولا مدح الا للمعز حقيقة يفصل دراً والمديح أساليب
نجار على البيت الأمامي معتل وحكم الى العدل الربوبي
منسوب(تامر،عارف:1961)

ويسرد ما هو مكمل لصورة الممدوح وغرض المديح بالحديث عن الرماح والسيوف وصورة الحرب وغمارها حتى يصل في تصويره الى مشهد يجعل فيه السيف زائراً فيقول : –

ولم ار زواراً كسيفك للعدى فهل عند هام الروم اهل وترحيب
اذا ذكروا آثار سيفك فيهم فلا القطر معدود ولا الرمل محسوب
وفيما اصطلوا من حر بأسك واعظ وفيما اذيقوا من عذابك تأديب(تامر،عارف:1961)

اما اننا لا نلمس افكاره ومعتقداته الاسماعيلية، بصورة طاغية على قصائده الاولى، فهذا حق مشروع للشاعر كما اوضحنا سابقاً، فإن هو اكتفى بدلائل بسيطة الا انها اوفت بالغرض الذي من اجله ذكرت في القصيدة فهو حين يقول في هذه القصيدة نفسها : –

وحسبي مما كان او هو كائن دليلان علم بالاله وتجريب
ولم تخرق سجف الغيوب هواجسي ولكنه من حارب الله محروب
واعلم ان الله منجز وعده فلا القول مأفوك ولا الوعد مكذوب
وانت معد وارث الارض كلها فقد حم مقدور وقد خط مكتوب
ولله علم ليس يحجب دونكم ولكنه عن سائر الناس محجوب
وذكرك تقديس وانت دلالة وحبك تصديق وبغضك تكذيب
الا انما الدنيا رضاك لعاقل والا فان العيش هم وتعذيب

وان طال عمر في نعيم وغبطة فما هو الا من يمينك موهوب(تامر،عارف:1961)

وهنا يحق لنا ان نتساءل : هل بعد هذا ما يشككنا بعقيدة الشاعر وانه لم يستفض في منح الصفات الالهية لممدوحه ؟! فاين هو العناء الكبير الذي يتكبده القارئ البسيط والمتعمق لشعر ابن هانيء والعقيدة الاسماعيلية في ايجاد افكار هذه العقيدة في قصيدة هي بدايات لمرحلة طويلة من ملازمته للمعز الفاطمي ! وفي قصيدته الاخرى التي عدت من بدايات مدحه للمعز الفاطمي (شمس من الحق)، والتي تلت الاولى من حيث التاريخ الزمني نراه يبقى محتفظاً بذات الصيغة والنهج والبناء التقليدي للقصيدة والدخول الى غرض المدح بصورة مباغته مباشرة من غير اجحاف بحق القصيدة ولا اخلال ببنائها الفني وهو يقول بعد ان يفتتحها بالغزل : –

والريح تبعث أنفاساً معطرة مثل العبير بماء الورد يختلط
كأنما هي أنفاس المعز سرت لا شبهة للندى فيها ولا غلط
تالله لو كانت الأنواء تشبهه ما مر بؤس على الدنيا ولا قنط(تامر،عارف:1961)

ولو نتمعن في قصيدته هذه نراه يؤكد مرة اخرى احدى افكار العقيدة الاسماعيلية المتعلقة بارتباط الامام بذات الله سبحانه وانه افضل العرب والعجم بل افضل آل بيت محمد فأين يصبح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وال بيته الاطهار(وجه بجوهر ماء العرش متصل ،يا أفضل الناس من عرب ومن عجم) والقول ان هذا السلوك الذي اظهره ابن هانيء في شعره لم يكن له هدف غير كسب المال واستدرار العطاء، وكل ما يفعله انما هو محاولات لتحريك اريحة الممدوح للعطاء كقوله :

لكل قوم سيد ماجد لكن يحيى سيد الخلق
كأنما في كفه للورى مفاتح الآجال والرزق
الحوض حوض الله في كفه يطفح من ملء ومن
فهق(تامر ،عارف:1961)

اما المرحلة الثانية من مدح ابن هانيء للمعز الفاطمي فتبدأ حين يتفرغ المعز لمحاربة الامويين والعباسيين، وفي هذه المرحلة تشتد العقيدة والافكار الاسماعيلية بالظهور بصورة جلية واضحة في شعر ابن هانيء، وربما امكننا ارجاع سبب ذلك الى ان مدحه للمعز حين انتصاره على الروم لم يكن له ما يسوغ اظهار مبادئ تلك العقيدة، فالأمر لا يعنيهم من قريب او بعيد اما حين بدأت الحروب مع الامويين والعباسيين، فإن الفرصة اصبحت مواتية لابن هانيء للنيل منهم واظهار مدى ايمانه بتلك العقيدة، ربما لينال الحظوة عند المعز الفاطمي وهذا امر تعارفته العرب في المشرق، فكانت النقائض فناً ادبياً نشأ من رحم تلك النزاعات الدينية والسياسية، ولا غرابة ان ينتقل ذلك الفن الى المغرب لذلك اصبحنا نلاحظ طغيان النزعة والفكرة الاسماعيلية بصورة واضحة على قصائد المرحلة الثانية لمدح ابن هانيء للخليفة الفاطمي المعز لدين الله، ولما كانت احدى معتقدات الاسماعيلية تتمثل في ان الامامة كالنبوة، والامام معصوم حتماً على حين لا يعصم غيره حتى الانبياء انفسهم (تامر، عارف:1952)

ويذهب ابن هانيء في تناول الخلود والمبالغة والمغالاة مذهباً يختلف عما وجدناه في مدائح المرحلة الاولى، فهو يضفي الصفات الالهية التي اختص بها الخالق عز وجل وحده وتفرد بها عن سائر خلقه على ذات الخليفة الفاطمي، وهذه الافكار جاءته من التعاليم الاسماعيلية القائلة بحلول الله بذات الامام فمرة يضع الخليفة فوق مصاف الانبياء حين يقول :

ماذا نقول جللت عن إفهامنا حتى استوينا اعجماً وفصيحا
نطقت بك السبع المثاني السنا فكفيننا التعريض والتصريحا
وجد العيان سناك تحقيقاً ولم تحط الظنون بكنهه تصريحا

صورت من ملكوت ربك صورة وامدها علماً فكنت الروحا
شهدت بمفخرك السموات العلى وتنزل القرآن فيك
مديحا(تامر،عارف:1961)

او هو يقول في ذات القصيدة : –

هل لي الى الفردوس من اذن وقد شارفت بابا دونها مفتوحا
تدعوه منتقماً عزيزاً قادراً غفار موبقة الذنوب صفوحا
اوتيت فضل خلافة كنبوة ونجي الهام كوحي يوحى
يا خير من حجت اليه مطية يا خير من اعطى الجزيل
منوحا(تامر،عارف:1961)

فهو قد منح للمعز الفردوس يدخل فيها من يشاء من عباد الله، وابن هانيء يعي تماماً بأنه احد الداخلين اليها، كونه لسان حال الخليفة والعقيدة الاسماعيلية والمدافع الاوحد عنهما بكل ما اوتي من ضراوة وشراسة، ولم يكتف بذلك بل اطلق على الخليفة صفات اختص بها الخالق سبحانه دون غيره من البشر فهو (منتقم، عزيز، قادر، بل هو غفار الذنوب) وهذا غيض مما افاض به مدح ابن هانيء للمعز الفاطمي، والذي يستوقف القارئ هنا، هو تمادي الخليفة لا الشاعر، افلا يعلم هذا ان ما يسمعه يدخل في باب الكفر مهما كانت التأويلات والتفسيرات ؟! فليس هناك من عذر واحد يملكه احدهما او كلاهما، لتأويل ما سبق وتقدم من شعر وما ورد فيه من مبالغة وغلو.

كان كل ما تقدم شعر مدح تقدم به ابن هانيء للمعز الفاطمي لا شك في انه ابدع في سبكه ونظمه ولكنه من جهة اخرى غالى في اضفاء الصفات على الممدوح حتى خرج بها عن محيط المعقول، والمألوف وكل هذا مر بمراحل متشابهة تنتهي بقصيدته الاخيرة التي بيناها ليصل فيها ابن هانيء الى درجة تأليه للممدوح بكيفية عجيبة جاعلاً من صفات الله سبحانه صفات للمعز

من جهة متحملاً نقمة العلماء، والفقهاء من جهة اخرى، حتى عدَّ المؤرخون موته مقتولاً كان بسبب شعره هذا، واصبح ديوانه يمثل صورة واقعية لتعاليم الاسماعيلية الفلسفية تمكن ابن هانيء من ان يمثلها خير تمثيل.

الخاتمة

بعد كل ما تقدم من بيان الاغراض الشعرية التي مزجها ابن هانئ في قصيدة المدح لديه لما وجه خطابه الى المعز الفاطمي ولا شك انه ابدع في سبكه ونظمه وغالي من بعض الاماكن اصبح نصه الشعري يمثل صورة جديدة لبيئته وهيكل شعري متوارث ويمكن ان نجمل بشكل سريع اهم الاستنتاجات التي شكلتها موضوعة البحث بما يلي:-

اولاً: ان الشعر الاندلسي كان ترديداً لصدى الشعر المشرقي مما عابه بعض النقاد على الاندلس ونتاجها ولكن لا يعني ذلك بالضرورة انه كان تقليداً اصم بل جَهد شعراء تلك الارض باضفاء الروح الاندلسية لكنهم احترموا وساروا على تقليد اهل المشرق من حيث الاعتماد على اركان ومكونات القصيدة من عاطفة وخيال وصور ووزن وقافية.

ثانياً: ولكون القصيدة العربية القديمة في المشرق اعتمدت في تكوينها على إمتزاج وتداخل الاغراض كذلك كان الحال في قصيدة المدح عند ابن هانئ فقد جمع ومازج اكثر من غرض في نتاجه كما كان متعارف عند اسلافه فجمع المدح الى جانب الغزل والوصف فشاع لديه هذا البناءفي تكوين النص الشعري.

ثالثاً: والمدح لديه وظفه للخليفة الفاطمي المعز الدين لله حتى اشتُهر بالمعزيات على غرار الهاشميات والسيفيات.

رابعاً: كان يميل الى روح البداوة التي تأثر فيها بما قرأ من شعر الجاهليين والاسلاميين فكانت الفاظه تتسم بالجلبة والقعقعة خاصة اذا تعلق الامر بوصف المعارك وتصوير البطولة والافتخار بشدة البأس.

خامساً: اما المعاني فهي قريبة واضحة وهو قد يعتمد الى التهويل والتصخيم في الصنعة واستخدام ساليب البديع.

سادساً: كانت القصيدة لديه تُبنى من لوحات متعددة للوصول الى الغرض الرئيسي فتبدأ بالغزل والتشبيب وذكر اوصاف الحبيبة والتي في الغالب قد تكون من حي الخيال ثم الانتقال بحسن التخلص الى غرض المدح.

سابعاً: يظهر جلياً ان الثقافة الدينية بمصدرها الاول القرآن الكريم قد لعب دوراً مهما في حياة الشاعر وتأثر به بشكل جلي وواضح عبر استخدامات النص القرآني خلال النسق الشعري سواء اكان عن طريق التناص او الاقتباس والتماهي مع الشخصيات التاريخية ذات البعد الديني.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- اتجاهات الشعر الاندلسي الى نهاية القرن الثالث الهجري : نافع محمود، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1990.
- الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة : احمد هيكل، دار المعارف، مصر، ط 3، 1967.
- الادب العربي في الاندلس :عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، للطباعة والنشربيروت ، ط1 ، 1975
- بلاغة العرب في الاندلس : احمد ضيف، مطبعة الاعتماد، ط 2، 1938.
- البيان المغرب في اخبار اهل الاندلس : ابن عذارى المراكشي، احمد بن محمد، تحقيق، احسان عباس، بيروت، 1967.
- تاريخ ابن خلدون (المقدمة) : ابن خلدون، ابو زيد عبد الرحمن بن محمد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968.
- تاريخ اداب العرب : مصطفى صادق الرافعي.دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،١٩٧٠
- كتاب الحيوان : ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تر : عبدالسلام هارون ، ط2، 1950 ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر.

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ابن بسام، ابو الحسن علي، تحقيق، د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط 2، 1979.
- شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1980.
- الشعر الاندلسي، بحث في خصائصه وتطوره : غارسيا غومس، ترجمة، حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 2، 1965.
- الشعر والشعراء : ابن قتيبة، ابو محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، حققه وضبط نصه، د. مفيد قميحة، راجعه وضبط نصه الاستاذ نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/2، 1985.
- كتاب الصناعتين : تصنيف ابي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري ، تر: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط1، 1952 ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.
- في الادب الاندلسي : جودت الركابي، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، 1955.
- قصة الادب في الاندلس : محمد عبد المنعم خفاجة، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، 1962.
- ملامح الشعر الاندلسي : عمر الدقاق، منشورات دار الشروق، بيروت، 1974.
- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب : المقري، ابو العباس احمد بن محمد، تحقيق، احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.
- ابن هانيء الاندلسي، عارف تامر، بيروت، 1961.
- ابن هانيء الاندلسي، درس ونقد، منير ناجي، دار النشر للجامعيين، ط 1، 1962.